الشارقة، مدينةٌ تحبني

أن تحب مدينةً فهذا شيءٌ عاديّ، كلنا لدينا مدنٌ نحبها. نفرح بالذهاب إليها، ونشتاقها إذا ما ابتعدنا عنها كثيراً.. ولكن أن تشعر بأن مدينةً ما تحبك فهذا شيءٌ غريبٌ وجديدٌ لم أشعره إلا مؤخراً وأنا أحزم حقائبي استعداداً للسفر للمشاركة في الفعاليات الثقافية على هامش معرض الكتاب لعام ٢٠١٥ بالشارقة، والذي توليه الدولة كل الإهتمام ككل شأنٍ ثقافيٍّ آخر وتجعل منه مهرجاناً ثقافياً.. لن أقدم شهادة أدبية ولن أقرأ قصصاً قصيرة، هذه المرة سأنفض الغبار عن خلفيتي في الترجمة وأعد شيئاً لندوةٍ حولها.

لا أعلم الآن لماذا شعرت أن هذه المدينة تحبني.. ربما لأنها استضافتني أكثر من أيّ مدينة أخرى في هذا الوطن الكبير أو في هذا الوطن الأصغر قليلاً، خليجنا الدافئ العزيز، فقد حضرت ناديها النسائي، واتحاد كتابها غير مرة وشاركت في أحداثها الثقافية المختلفة، وها أنا أعد العدة للمشاركة مجدداً في أحد أحداثها الثقافية.. وعندما تشعر أن هذه المدينة المشعة ثقافياً تحرص على أن تراك في كثيرٍ من مناسباتها فربما تشعر بأنها تحبك، خاصة إذا كنت تحبها..

المباني الشاهقة تشغل مساحاتٍ أكثر من المدينة ولكن ما أراه على مستوى نظري وأنا في السيارة لا يختلف كثيراً عما أراه في الدوحة. تذكرت سبباً من أسباب حبي لهذه المدينة إذ شعرت أنني في الدوحة.. وصلت في المساء، وما إن توغلت أكثر في طرقات المدينة حتى حان وقت صلاة العشاء.. من نافذة السيارة المغلقة تأتي قراءة الإمام الجميلة المؤثرة وهو يصلي بالناس.. السكينة التي داخلتني وأنا أسمع قرآن الصلاة يأتي واضحاً جلياً من خلال نوافذ السيارة المغلقة تذكرني بالمزيد من أسباب محبتي لهذه المدينة.. كم مدينة إسلامية تجاوزت بهذا التراث الجميل العقد الأول من هذه الألفية؟

الضجيج الثقافي.. معرض الكتاب المترامي الأطراف.. الإبتسامة اللطيفة المرحبة والدائمة للقائمين على الأحداث الثقافية.. مرابطتهم في مداخل الفنادق ليكونوا عوناً لضيوفهم في أيّ وقت.. أسطول السيارات المسخر دائماً لهؤلاء الضيوف.. كل هذا الهوس بالثقافة وبكل ما يمت إلى الثقافة بصلة.. هكذا تنمو المدن،

هكذا تتطور.. هكذا تشرق.

والصغار، حتماً هناك رغبة جادة في تنشئتهم ليكونوا عشاقاً للثقافة. مبكراً في يوم الإفتتاح كان الأطفال بحقائبهم المعلقة على ظهورهم وأزيائهم المدرسية من أجمل ما في المعرض..

منتشرون في كل مكان، مكبّون على الكتب يقلبونها بحماسٍ بفضولهم الطفولي.. متسكعون في الطرقات في انتظار وصول البائعين ليُفتح المعرض فعلاً.. وانظر، قارئي العزيز، إلى هؤلاء البنات الصغيرات جالساتٍ في الكافتيريا لوجبة صغيرة وقد ارتدت كل منهن وشاحاً أحمر كتب عليه: مدرسة الخان النموذجية للبنات ترحب بكم.. ظُرفهن الطفوليّ يغري بالتقاط صورة أو اثنتين..

أين "أبلتكم"؟

هناك..

هناك على طاولة منفصلة جلست ثلاث مدرسات..

هل من الممكن أن ألتقط بضع صور للبنات؟

وفي لهجة مرحة ردت إحداهن:

فقط إذا كنت ستصورينا نحن أيضاً..

ما هذا الترحيب.. إنني أكتشف المزيد والمزيد من أسباب حبي لهذه المدينة.. إنها البساطة ووضع الأمور في نصابها الحقيقي والذي تمنيت لو كان لديّ.

"يلا، غنوا لأبلة دلال".

وتغني الطالبات أغنية حماسية عن الكتاب والقراءة والإمارات في الوقت ذاته. وتخبرني أبلة داليا بفخر أنهن بطلات مسرحية كبيرة مقرر عرضها في مارس.

ثم هناك صديقاي من سوريا الحبيبة اللذان يتركان بيتهما في أبو ظبي ويقطعان المسافة حتى الشارقة لنقضى معاً أمسية لطيفة لا تنسى، بالنسبة لي على الأقل..

في المعرض شعرت بما أشعر به دائماً في كل المعارض.. الاحتفالية الجميلة.. الألوان المبهجة.. العروض الصغيرة الجميلة التي تعمل على نشر المرح والصخب والابتسامة في كل ممر، ثم.. التوهان.. الحيرة، ما الذي أريد شراءه من الكتب يا ترى؟ وفي النهاية الإرهاق والملل والبحث عن الباب..

أعود بأكياسي القليلة إلى الفندق. وأكتشف أنني كان يجب أن أخطط بشكل أفضل لكيلا أنسى ما أريد شراءه..

وفي النهاية أحزم حقائبي مرة أخرى.. أحزم ذكرياتي الأحدث هنا.. الوجوه المبتسمة.. الوجوه الجديدة عليّ في عالم الأدب والثقافة.. الوجوه الأليفة التي لا أراها دائماً.. بعض الكتيبات للذكرى.. الدفء.. الإبتسامة داخلي.. كل أسباب حبي للمدينة.. وأسرع بها إلى المطار..

دعاء خليفة

نشر في عدد ديسمبر من مجلة أعناب القطرية